العرب
الجمعة 2019/09/20
السنة 42 العدد 11473

ألوان الصباغة تشكّل زهرة مفكّكة

لوحات غير مكتملة تؤرخ لفضاءات العبور والحبور

التشكيلي المغربي مراد بنكيران: طائر يبحث عن حب الجمال بعين نافذة

يتواصل برحاب جامعة "نيو إنغلند" بطنجة المغربية معرض استرجاعي لأعمال الفنان المغربي مراد بنكيران من تنظيم الجامعة ومنتدى طنجة الدولي، وبالتعاون مع دار العرض "دار دار". ويضم المعرض أكثر من خمسين لوحة تنتمي إلى أربع مراحل من مسيرة الرسام التي انطلقت قبل أربعة عقود.

عبدالعزيز جدير

طنجة (المغرب) – يعرض الفنان التشكيلي المغربي مراد بنكيران لوحاته الفنية بفضاء الجامعة الأميركية "نيو إنغلند" بطنجة، خلال الفترة الممتدة ما بين 7 سبتمبر الجاري وحتى 7 أكتوبر القادم.

واختار بنكيران مدينة طنجة، التي ولد وترعرع فيها، لعرض تجربته الفنية التشكيلية التي تتمحور حول "تجاوز المرئي والواضح والمجرد للوصول إلى تصورات لا مرئية". ويظهر المعرض جانبا جديدا من التجربة الحياتية لبنكيران، ينضاف لمساره العلمي والأكاديمي، حيث إنه حاصل على شهادة الماجيستير في اللسانيات وعلى شهادة جامعية في علوم الكمبيوتر، كما أنه مدير المدرسة العليا للتكنولوجيات الحديثة ومدير فرع جامعة "نيو إنغلند" بطنجة.

ذاكرة بصرية حية

لعل سنوات الطفولة لا تحدّد ملامح الرجولة فقط، فيما يستقبل من عمر الإنسان، بل تظل تقود الخطوات نحو ما شاهده الطفل وهو صغير، وسمعه وعلق بالذهن ووعاه أم لم يعه. أليست الذاكرة حديقة لحالات عاطفية قديمة تؤثر على تمثيلاتنا دون إدراك ذلك؟

مراد بنكيران

لوحاتي تعكس ما احتفظت به الذاكرة، وما ألفته حاسة البصر

والطفل مراد بنكيران قادته خطواته، خلال هذه المرحلة العمرية، بين أزقة مدينة فاس القديمة، فاختزنت ذاكرة الطفل الروائح المختلفة. روائح صناعة الجلد وألوانه، من "الشُكَارَة"/ الزَّعْبُولَة"، إلى "البَلْغَة" بألوانها المتعدّدة: الأصفر، والبني، والأحمر القاني.. وتسرّبت عبر حاسة البصر الألوان والأشكال.

وعن هذا الوعي الطفولي البكر بالألوان يقول التشكيلي المغربي مراد بنكيران في حواره مع "العرب"، "ما اقترب أحد من أفراد عائلتي من فن الرسم، أو حمل ريشة أو أقلاما ورسم. لكن جدي، من جهة الوالد، اشتغل 'بالدَّبَاغْ'. وكان يتاجر في 'البْطَايْنْ' (جلود الحيوانات)، وجسدها مرشح للصباغة، كل ألوان الصباغة، ويتاجر في الأمْهار، والأفراس أحيانا. كما كان ثلاثة من أبناء عمومتي يخيطون 'السْتُورْمِيَّاتْ' (مخدات خاصة) و'البوفات' (الكراسي الجلدية المغربية) أيضا، ويهيمنون على هذا الصنف من الصناعة التقليدية وسوقه. ويختار لها، لتسحر الزبائن، أبهى الألوان وأزهاها. هي مرحلة الحبو في مسيرتي الفنية حيث خطبت الألوان ود بصري، وفؤادي".

ويروي الفنان بنكيران لـ"العرب" أن ما أثر فيه منذ الصغر هو الأزقة، واللوحات التي كتبت عليها أسماء الشوارع والأزقة، والصور المرسومة بالفسيفساء، والكلمات المشكلة عبرها. كما الفسيفساء التي تزيّن فضاءات الأضرحة، والنقوش، والأشكال، والخطوط.

ويضيف "كلها ألوان تشدّ الخاطر، وتسكن العين، وتتسرّب عبرها إلى الفؤاد. ولا شك أنها تولد مشاعر مختلفة، وتسكن قلب هذه المشاعر، وتنزل هذه إلى قاع الذاكرة تنتظر لحظة النداء عليها ذات يوم، وحين كنت أعود إلى فاس، وأنزل إلى المدينة القديمة تنتعش تلك المشاعر، تنبعث، فتحتل الذاكرة، لتنهمر متدفقة".

ومن هناك يفتح مراد بنكيران العين، في رسومه، على ملحقات: الأشكال، والأحجام، والزوايا، وزاوية النظر، والألوان، والضوء والظل، ذلك كله يختلط ببعضه البعض ويشكل أمورا أخرى لا تعيها البصيرة، ولكنها تستقر بالفؤاد.

وينتقل بنكيران في حديثه مع "العرب" إلى مرحلة الشباب، قائلا "في فاس، التي عدت إليها طالبا بشعبة اللغة الإنكليزية وآدابها، يوسوس لي ابن عمتي أن أقيم معرضا حيث شغلت لوحاتي حيزا مهما من الغرفة".

وبالفعل، أقيم هذا المعرض الفردي الأول بالمركز الثقافي الإسباني بفاس في العام 1984، وشمل لوحات رسمت بالمداد الصيني، وأخرى بالصباغة، وصنف ثالث رسم بالصمغ وتناول فيها مراد المشاهد الطبيعية؛ إنه شيء شبيه بالرسم الإعدادي (الكْرُوكِي).

وعن هذه المرحلة تسأله "العرب"، لعل اللجوء إلى الرسم بالصمغ بعض بقايا مرحلة الدراسة بالكتّاب؟ فيقول "قد يكون في ذلك محاولة الجواب على السؤال التقليدي الذي يراود المبتدئ على نفسه؛ إضفاء طابع الأصالة على العمل. رسم مغربي بمنتوج مغربي هو الصمغ. وقد يكون فيه العمل بما يوجد تحت اليد، وتوفره بالسوق بكثرة وبثمن بخس، عكس الصباغة وثمنها المرتفع الذي قد يعصف بميزانية الطالب والذخيرة. ثم إن الصمغ يصمد، لا ينمحي. بينما يتغير اللون مع مرور الزمن فيصبح قريبا من الذهبي".

حاولت رسوم مراد بنكيران أن تعكس ما احتفظت به الذاكرة، وما يعبّر عن قوة الحنين إلى الطفولة، وما ألفته حاسة البصر؛ لذلك حملت اللوحات الأولى صور: امرأة ترتدي الحَيك، والأبواب، والأقواس، والأزقة، والمتاهات.. هي متاهات البداية. وكانت المفاجأة! بيعت كل اللوحات. كأن القدر احتضن مراد، وضع بين كفيه ثمار أتعابه وغلة اجتهاده. ورحل الفنان الشاب خلال العطلة الصيفية إلى البرتغال، وإسبانيا، وفرنسا ولم يتوقف عن بيع لوحاته.

وهناك رأى بعض الفنانين الأوروبيين يعرضون لوحاتهم على أرض الأسواق الشعبية الأسبوعية، ويقتني الناس منها ما أعجبهم. اصطف إلى جانبهم وعرض منتوجه. وكان الإقبال، للثيمة الشرقية، وللملامح الشرقية سحرها، ألم تقد خطوات كبار رسامي أوروبا نحو "الشرق الساحر" ومنه المغرب: كدولاكروا، وماتيس؟ فلعل القدر يعوّض له استثمار الزمن والمال.

رحل مراد بنكيران إلى فرنسا للدراسة، قضى أربع سنوات (1985–1989) بمدينة ليون، حيث درس اللسانيات، ولغة وثقافة الدول الناطقة بالإنكليزية، بجامعة الأنوار، ليون الثانية. وهناك انخرط في معترك الرسم وثابر على العمل، لأن مواد الرسم متوفرة بكثرة، وسعرها معقول، وما كان معقولا يومها في المغرب.

وعن التجربة الفرنسية، يقول "ثم إن العائلات التي تعرّفت عليها هناك، ورأى بعض أفرادها أعمالي، وشغفي بالرسم شرعوا يشترون مواد الرسم ويقدّمونها إليّ بمثابة هدية. كما قدّموا إليّ كتبا تتناول حيوات الفنانين وأعمالهم ومنهم فان غوخ.. فضاعفت عدد ساعات الرسم. واعتبرت ذلك تجندا من الحظ لخدمتي، فثابرت على العمل قبل أن ينسحب، من يصدق إخلاص الحظ".

ويلاحظ أن رسوم الفنان المغربي في مرحلة البرتغال، وإسبانيا، وفرنسا عرفت تغيرا، حيث اتجهت نحو رسم الطبيعة، كما تغيّرت الألوان أيضا، وتسرّب إليها اللون الأخضر الذي حاز نصيب الأسد. والأخضر يليق بأوروبا، يقول بنكيران "ألم يفتتن الشعراء العرب بطبيعة الأندلس، وأفردوا لوصف الطبيعة قصائد خاصة؟".

وكما الشاعر جاك بريفير افتتن مراد بنكيران بالطائر الذي جمع في شخصه كل المعاني: حلم الأطفال بالحرية وإطلاق الجناحين للريح، لذلك حضر الطائر في رسومه بكثافة، لتضعنا ريشته أمام النظرة المليئة بالفخر والاعتزاز بالطائر. طائر مركب من عدة أنواع من الطيور منها الطاووس، وقد يكون طائرا أسطوريا، وللكائن الأسطوري معنى التركيب من أنواع شتى.

ولعل الميزة الكبرى لأعمال مراد بنكيران أنه، وهو يقدّم مشاعره ورؤاه، أو ينثر ألوانه وأشكاله لا يمنح العمل صفة الاكتمال ليمنحك الدلالة الواحدة، أو يصوغ العمل من طبيعة واحدة بل هو مركب، ليبتعد عن أصل يسكن الذاكرة، ويحتمل تسمية واحدة، ويستقر عند دلالة واحدة، بل يبدو كأن مكوناته لا تزال تتفاعل مع بعضها البعض لتنتج دلالة هي التي يدركها كل مشاهد في لحظة معينة. كأنما يترك أبواب شكل اللوحة والدلالة "مشرّعة"، كأن للرسم مستويات، وعلى امتداد الفحص تظل الصورة تتحوّل، ويتّسع معها مدى الإدراك.

وتحضر العين في عدة رسوم للفنان المغربي، وكأنه يريد أن يقول هي جماع الحواس، والعقل. هي الإدراك، عين الإدراك. وتبدو في حركة دائبة لتلتقط كل شيء. أهي عين الفنان الذي يطارد التفاصيل الخبيئة، المقنّعة والمتمنّعة؟

نماذج متنوّعة

في رسم لمراد بنكيران بعنوان "انبلاج"، يبدو جسد غير واضح الملامح، يجب أن نملأ بياضات اللوحة لتكتمل الصور ذهنيا. وقد يستثمر كل مشاهد جهدا في جانب من الجسد لإنتاج دلالة. وقد يحيل الرسم أيضا على "دون كيخوته دي لا مانتشا" عنوان الوجود الإسباني وتحوّله. كما يلاحظ عودة اللون الفاسي، أو العكر الفاسي، وهو اللون الأحمر غير القاني. وكانت النساء، قبل ازدهار صناعة الماكياج يضمخن وجناتهنّ بالعكر الفاسي فيزيدهنّ سحرا على سحر، أو يمنحهنّ بعضه إن لم يكن لهنّ حظ منه.

> **الميزة الكبرى لأعمال بنكيران، أنه وهو ينثر ألوانه وأشكاله لا يمنح العمل صفة الاكتمال ليمنحك الدلالة الواحدة**

ويهيمن اللون الأحمر غير القاني على الرسوم الأخيرة لبنكيران، وهو لون الدم: محرك الحياة، والضامن لاستمرارها، ورمز الوجود.

وفي لوحة من دون عنوان، نرى شكلا لبيت متخيّل، يمنح الانطباع مع طول النظر بأنه زورق سابح على وجه البحر. وفي لوحة أخرى تستوقفنا أفعى. هي رمز الإغراء، والإغراء يدفع نحو البحث عن المتعة. والمتعة تدر الفرح. أيكون مراد بنكيران بدّل الأفعى شكلا غير مستقر منح رسومه في هدوئها ولا استقرارها وجمودها، وتحوّلها، السحر والمتعة وجعلها تدر الفرح؟

ويوحي معرض الفنان التشكيلي مراد بنكيران بأن الفنان المغربي يتحرّر من تبعات اليومي، ويلقي بنفسه في يم الخيال، ليفتح آفاقه، ويوسّع ضفافها، ويحرض ذاكرة المشاهد على السفر إلى أبعد الحدود. وذلك ليخاطب فيها فكرة التحوّل في وعي الإنسان ولا وعيه. كثيرة هي الرسوم التي حين نطيل إليها النظر، ونتفحصها بدقة، تظل الأشكال تتغيّر وفق المدة التي نظل نمعن النظر فيها في اللوحة: من النظرة الأولى، إلى الانخراط في لحظة تأمل، فالاقتراب منها أو الابتعاد عنها.

من أنت يا سيمون.. لنا لقاء في صورك الزائفة

ميموزا العراوي
ناقدة لبنانية

يعود مصطلح "ما بعد الحقيقة" إلى بداية الحرب العالمية الأولى. والبعض يرجعه إلى سنة 2015 حيث تضاعف استخدام البشر للشبكة الإلكترونية العالمية. أما البعض الآخر فيرد أصول هذا التعبير إلى الزمن الذي تلى مباشرة 11 سبتمبر 2001.

ربما حقيقة نشوء وتبلور هذا المصطلح تعود إلى أبعد من ذلك بكثير. تعود إلى الزمن الذي وجد فيه الإنسان على الأرض برفقة إنسانٍ آخر لا يريده ندا مهما كلف الأم، بل يريده خاضعا له. خاضعا له في البداية بالقوة الجسدية والعسكرية ثم من خلال ما استحدثه من مَرافق متطورة وما ابتكره من أساليب إقناع و"أشياء مُسالمة" نمت في بيئة افتراضية/ مُصطنعة لم يعد من الممكن إلاّ اعتبارها "الجغرافيا" الجديدة. حيّز يسكنه جميع البشر بدرجات نفوذهم المتفاوتة جدا.

ومن تلك الابتكارات "المُطوّعة" أو المستعمرة لبعضنا الآخر نذكر الآلات الذكية، والكائنات الافتراضية ذات الملامح البشرية.

اليوم، يقف الإنسان المعاصر قاتلا ومقتولا وسط ضوضائه ووجها لوجه مع "كائناته" المصنعة. يقف في قبضة "زمن ما بعد الحقيقة" المخملي الذي عكف على صناعته ونحت قوانينه منذ الآلاف من السنين، وشارك بطريقة أو بأخرى بإرسائه صيغة لعيش يتشارك فيه المزيّف مع الحقيقي دون نزاع يُذكر، ويحظر فيه الاصطناعي مع البشري ربما حتى فناء الأخير.

باختصار، وكي لا يصبح استخدام مقولة "زمن ما بعد الحقيقة" استخداما فولكلوريا، كما يحدث في العديد من الكتابات الصحافية، نورد الجانب الذي يعنينا مباشرة من تعريفها "زمن ما بعد الحقيقة، هو مصطلح للدلالة على الظرف الذي تفقد فيه الحقيقة مرجعيتها، وتصبح بلا جدوى أو أي تأثير".

كما هناك رأي يتشاركه الكثير من علماء الاجتماع حول مواصفات هذا الظرف معتبرين أنه تظهير لـ"غرق الاجتماع السياسي العالمي من قمة رأسه إلى أخمص قدميه في عوالم افتراضية مبنية على المعلومات والصور الزائفة". ويحيلنا هذا الكلام إلى الرائي والمفكر جان بودريارد في كتاباته المتمحورة حول موت الواقع الحقيقي تحت وطأة تمثيلاته ونسخته غير الأصلية أو تحت النماذج المتخيلة.

هذا "الظرف" أفرز فنونا تستخدم إما تقنيات ديجيتالية وتفاعلية أو توظف أفكارا تمظهرت في اللوحات وجوها بشرية هي أقرب إلى المخلوقات الفضائية المتخايلة أو الكائنات الغرائبية ذات الملامح المخيفة ببرودتها أو بمآسي تحولاتها إلى غير ما كانت عليه قبل أن تحل لعنة "الظرف" الفارض عليها شروطا للحياة. وهنا، نذكر على سبيل المثال أعمال الفنان صفوان داحول والفنان صادق الفراجي من جهة، والفنان خالد الحجار والفنان أكرم زاقي من جهة أخرى.

مؤخرا بات هذا الظرف الذي "فقدت فيه الحقيقة مرجعيتها" منسجما مع السعي لابتكار آلات ذكية تفوق ذكاء الإنسان وقوته ليكون بعضها أكثر شبها به وبعضها الآخر ذا ملامح اصطناعية يتباهى باصطناعيتها كنسخة أفضل من النسخة الإنسانية قلبا وقالبا. كما ازداد الاهتمام بتمويل برمجة شخصيات افتراضية مضللة ذات ملامح إنسانية فائقة الدقة. ولعل فيلم "سيمون" للمخرج أندرو نيكول هو من الأفلام الأكثر تعبيرا عن خاصية "النسخ" غير الأصلية التي تجتاح عالمنا مثيرة فيه البلبلة وتبدّل جوهره في الصميم.

يبدو الفيلم أشبه بفيلم رعب معاصر يستعرض حالة الزيف والتكاذب المستفحلة في المجتمعات ويبحث في ثنايا اللقاء مع الافتراضي الذي صنعه الإنسان كي ينجو من كبواته، فإذا به سجين له. كما يأخذنا هذا الفيلم إلى أعمال الفنان السوري بشر كوشاجي، لاسيما في اللوحات التي رسم فيها شخوصا بوجوه مشفرة مشطوبة وكأنها بيانات ديجيتالية.

وعن هذه اللوحات يقول بشر كوشاجي "هي تعبير عن محاولاتي استرجاع ذكرياتي عن أشخاص عرفتهم في حياتي قبل اندلاع الحرب السورية". ويضيف أنها تشكل بالنسبة له بحثا فلسفيا في معنى الملامح البشرية وقد خصّبها الزمن المفتوح وبعثر خصائصها البشرية المعهودة.

فيلم "سيمون" وباختصار يدور حول مخرج سينمائي لفيلم تخلت عن التمثيل فيه البطلة وفقد اهتمام الجمهور بأفلامه، غير أن هذا المخرج عاد إلى ذروة شهرته عندما استعان ببرنامج ديجيتالي مكنه من ابتكار امرأة/ ممثلة حطمت الأرقام القياسية في عالم السينما لتصبح "معبودة الجماهير".

الفيلم يبحث بذكاء متوقّد في العلاقة التي جمعت المخرج بممثلته الافتراضية وصولا إلى مواقف دراماتيكية أفضت إلى قضايا تجريم وقتل متعمد، أُتّهم فيها عندما أراد لاحقا التخلّص منها.

> **الأساطير الإغريقية كانت تعج بالقصص التي تبرز للمآسي الناشئة عن لقاء البشر بأنصاف الآلهة، ما يعني أن لقاء الافتراضي بالحقيقي أمر قديم**

ويسلط كلام مخرج فيلم "سيمون"، أندرو نيكول الضوء على عدة أفكار شديدة المعاصرة، إذ يقول "قدرتنا على صناعة الزيف تفوق قدرتنا على التعرّف عليه. نحن في حقيقتنا لم نعد مهتمين إن كان ما نراه زيفا أم لا.. يقول المخرج في الفيلم لممثلته الافتراضية: أنت أكثر حقيقية من الجمهور المأخوذ بك، وهنا تكمن المشكلة".

ويضيف أندرو نيكول قائلا "يجب أن تعلموا بأنني في معظم أفلامي أستخدم الخدع البصرية في تشكيل ملامح الممثلين، أخفي الشوائب وأضيف أخرى.. سيأتي زمن لن يميّز فيه الجمهور ما بين الحقيقي والمزيّف. والأفظع من ذلك أنه حينها لن يبالي بالفارق ما بين الاثنين".

البلبلة والنهايات التراجيدية للقاء الافتراضي بالحقيقي ليست جديدة إطلاقا، فالأساطير، لاسيما الإغريقية تعج بالقصص التي تبرز للمآسي الناشئة عن لقاء البشر بأنصاف الآلهة أو بالكائنات الخارقة، لذلك يصبح اليوم للإجابة عن هذا السؤال أهمية كبرى: إلى أي درجة نحن مستعدون لقبول الاصطناعي أو الافتراضي على أنه حقيقة لنتصرّف نحوه على هذا الأساس؟